المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصدر في يوم الخميس غرة ربيع الاول سنة ١٣١٨ — ٢٨ يونيه (حزيران) سنة ١٩٠٠)

القضاء والقدر

قضت سنة الله في خلقه بان للعقائد القلبية سلطاناً على الاعمال البدنية فما يكون في الاعمال من صلاح او فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الاعداد الماضية ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات اخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس ورب اصل من اصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم او تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على فهم السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها وتصادف عنده بعض الصفات الرديئة او الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم او على خبث الاستعداد فتنشأ عنها اعمال غير صالحة وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ولا كيف يصرفه اعتقاده والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك

القاعدة . ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم وقع التحريف والتبديل فى بعض اصول الأديان غالباً بل هو علة البدع فى كل دين على الاغلب وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى افضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الاديان او عقيدة من العقائد الحقة استناداً الى اعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين او العقيدة

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من اصول العقائد فى الديانة الاسلامية الحقة . كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والذلة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم اطوارا ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر . قالوا ان المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم وقد نشأ فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة ولكن متى امكن لأحدهم ان يضر اخاه لا يقصر فى الحاق الضرر به فجعلوا بأسهم بينهم والامم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد اخرى . رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون فى كسور بيوتهم يسرحون فى مرعاهم ثم يعودون الى مأواهم . الامراء فيهم يقطعون ازمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات وعليهم حقوق وواجبات تستغرق فى ادائها اعمارهم

ولا يؤدون شيئاً منها . يصرفون اموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ولكن لا يدخل فى حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة. يتخاذلون ويتنافرون ويغيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية فرب تنافر بين اميرين يضيع امة كاملة كل منهما يخذل صاحبه ويستعدى عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية وضعفاً قاتلا فينال من بلادهما ما لا يكلفه عدداً ولا عدة. شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة الى ما يلحقون به الامم فى العزة والشوكة وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون ويباهونهم بما يكسبون واذا اصاب قوماً من اخوانهم مصيبة او عدت عليهم عادية لا يسعون فى تخفيف مصابهم ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية يكون من مقاصدها احياء الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بني الاقوياء وتسلط الغرباء . هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار وزعموا أن لا منشأ لها الا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية وحكموا بان المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ولا يأخذون حقاً ولا يدفعون تعدياً ولا ينهضون بتقوية سلطان او تأييد ملك ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ويركس من طباعهم حتى يؤدى بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفنى بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة وما يسلم من ايدى بعضهم يحصده الاجانب

واعتقد اولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين

الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بان الانسان مجبور محض فى جميع افعاله وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ فى نفوس قوم انه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب واجدر بهم بعد ذلك ان يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم . هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق ولست اخشى ان اقول كذب الظانّ واخطأ الواهم وابطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذباً . لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنيّ وشيعي وزيدي ووهابى وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بان لهم جزاءً اختيارياً فى اعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير الهادية الى كل فلاح وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى ان الانسان مضطر فى جميع افعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت ان لا فرق بين ان يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين ان يحرك بتفقفة البرد عند شدته ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض ارباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق

لهم اثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه اولئك الواهمون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ويسهل على كل من له فكر ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا اثراً من آثار الادراك والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات فللظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلاً عن عاقل وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هي يد مدبر الكون الاعظم الذي ابدع الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له خصوصاً في العالم الانساني

ولو فرضنا ان جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود اله صانع للعالم فليس في امكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والتأثيرات الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان ان يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه ؟ هذا امر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلمائه سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء واطالوا البيان في اثباتها ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بآرائهم . ان للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل امة وهو العلم الباحث عن سير الامم في صعودها وهبوطها وطبائع

الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والاخلاق والافكار بل فى خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكوّن الدول او فنآء بعضها واندراس اثره . هذا الفن الذى عدوه من اجلّ الفنون الادبية واجزلها فائدة بنآء البحث فيه على الاعتقاد بالقضآء والقدر والاذعان بان قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قويٌّ ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضآء والقدر اذا تجرّد عن شناعة الجبر يتبعه صفات الجراءة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الاسود وتتشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلى الجود والسخآء ويدعوها الى الخروج من كل ما يعزّ عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة . الذى يعتقد بان الاجل محدود والرزق مكفول والاشيآء بيد الله يصرّفها كما يشآء كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة امته او ملته والقيام بما فرض الله عليه ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية واصول الاجتماعات البشرية . امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل

عظيم » . اندفع المسلمون فى اوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوّخوا الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من بلاد بيرنى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وعددهم وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة وطبائع الاقطار المتنوعة . ارغموا الملوك واذلوا القياصرة والاكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة

ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات . دمروا بلاداً ودكدكوا اطواداً ورفعوا فوق الارض ارضاً ثانية من القسطل وطبقة اخرى من النقع وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم واقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم وارجفوا كل قلب وارعدوا كل فريصة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقفهم وردوهم على اعقابهم

بهذا الاعتقاد لمست سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من اهل المغرب وهو الذى حملهم على بذل اموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعلاء كلمتهم لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة . هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى اقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض وكأنهم اخذوا لانفسهم بالتوكل على الله اماناً

من كل غادرة واحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم واولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ولا تأخذ النساء رهبة وتغشى الاولاد مهابة . هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدّد افلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب اعدائهم فينهزمون بجيش من الرهبة قبل ان يشيموا بروق سيوفهم ولمعان اسنتهم بل قبل ان تصل الى تخومهم اطراف جحافلهم (بكائي على السالفين . وتحيبي على السابقين . اين انتم يا عصبة الرحمة واولياء الشفقة . اين انتم يا اعلام المروءة وشوامخ القوة . اين انتم يا آل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة . اين انتم يا خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . اين انتم أيها الامجاد الانجاد القوّامون بالقسط الآخذون بالعدل الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الامة . الا تنظرون من خلال قبوركم الى ما اتاه خلفكم من بعدكم وما اصاب ابناءكم ومن ينتحل نحلتكم . انحرفوا عن سنتكم وجاروا عن طريقكم فضلوا عن سبيلكم وتفرقوا فرقاً واشياعاً حتى اصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب اسفاً . وتحترق الاكباد حزناً . اضحوا فريسة للأمم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ولا دفعاً عن حوزتهم . ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ويوقظ النائم ويهدي الضال الى سواء السبيل . انا لله وانا اليه راجعون)

اقول وربما لا اخشى واهماً ينازعني فيما اقول : انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في

اواسط الطبقات . ثم رقى بهمته فى اعلى الدرجات . فذللت له الصعاب . وخضعت الرقاب . وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب . ويبعث التفكر على طلب السبب . الا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله الانسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذى يهوّن عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر وركون قلبه الى ان المقدر كائن ولا اثر لهول المظاهر

اثبتت لنا التواريخ ان كورش الفارسى (كيخسرو) وهو اول فاتح يعرف فى تاريخ الاقدمين ما تسنى لها الظفر فى فتوحاته الواسعة الا لانه كان معتقداً بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة وان اسكندر الاكبر اليونانى كان ممن رسخ فى نفوسهم هذه العقيدة الجليلة وجنكيز خان التترى صاحب الفتوحات المشهورة كان من ارباب هذا الاعتقاد بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنساوى من اشد الناس تمسكاً بعقيدة القضاء وهى التى كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر

فنعم الاعتقاد الذى يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله فى طبقته ايّاً كانت . نعم اننا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر وربما كان هذا سبباً فى رزيئتهم ببعض المصائب التى اخذتهم بها فى الأعصر الاخيرة ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر ان يسعوا جهدهم فى تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا

بينهم ما أثبته ائمتنا رضى الله عنهم كالشيخ الغزالى وامثاله من ان التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا فى العمل لا فى البطالة والكسل وما امرنا الله ان نهمل فروضنا وننبذ ما اوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين المائدين عن الصراط المستقيم . ولا يرتاب احد من اهل الدين الاسلامي فى ان الدفاع عن الملة فى هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التى تجمع كلمتهم وترد اليهم عزيمتهم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول الا دعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم . اما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة التقيض الى نقيضه بل اشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر وثمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان صدمة من طرف الشرق وهى غارة التتر من جنكيز خان واحفاده وصدمة من جهة الغرب وهى زحف الامم الاوربية باسرها على ديارهم وان الصدمة فى حال النشوة تذهب بالرأى وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الامر فيهم الى غير اهله وولي على امورهم من لا يحسن سياستها وكان حكامهم وامراؤهم من جراثيم الفساد فى اخلاقهم وطباعهم وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت انظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التى لا تتجاوز لذته

الانية واخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب لا لعلة صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط وادى الى ماصاروا اليه

ولكني اقول وحق ما اقول ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ورسومها تلوح في اذهانهم وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم وكلما عرض عليها من الامراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد ان تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهم ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم وارهاب الامم الطامعة فيهم وايقافها عند حدها وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ودوّخوا البلاد وارغموا انوف الملوك ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم احدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الاخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب . حركة سرت في افكار ذوي البصيرة منهم في اغلب الانحاء شرقاً وغرباً وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الجهد لبث افكارهم وجمع الكلمة المتفرقة وضم الاشتات المتبددة وجعلوا من اصغر اعمالهم نشر جريدة عربية تتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضمره الاجانب لهم وانا نرى عدد

الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم . نسأل الله تعالى نجاح اعمالها وتأييد مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه ان يترتب على حسن سعيها اثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً (العروة الوثقى)

باب التربية والتعليم

﴿ باب الولد من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٠) من اراسم الى هيلانه فى ٣ يونيه سنة ١٧٥

اظن ان ما ينسب للاعتقاد الديني من التأثير فى طباع الناس واخلاقهم مبالغ فيه كثيراً[1] . وعلى كل حال فالتصديق بان الانسان يوفى

---

(١) ان معظم ما كتبه المؤلف فى هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكتراثه بتكاليفه التى لا يعتبرها الا من الامور التى جرت بها العادة وكأنه لم يبلغه خبر الامم التى وصلت بدينها الى اوج الكمال النفسى وغاية التقدم الحسى فأى شىء اخرج الامة العربية قبلاً من ظلمات الجهل الى نور العلم ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذي جاء به الرسول الكريم ؟ ولست ادري كيف ان الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال لا شك ان القائل بهذا منكر للبعث وهى ضلالة جره اليها التطرف فى النظر كما جر اليها كثيراً من امثاله . ولا اراه الا مبالغاً فى انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لأولادهم من التهديد بالعقاب الالهي ولا نسلم أن هذا التهديد لا يكون له من الاثر ما يتوقعه وكأنه يعتقد ان الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبو